

نعمان الحباسي

حمير الطرائف

رواية



الكاتب :
نعمان الحباسي

عنوان الكتاب :
حمير المدائن

إهداء

ر.د.م.ك : 0-000-24-9938-978

الطبعة الأولى :

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©



مسكلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلا ترا تونس - تونس العاصمة

الهاتف : 98 233 915 (+216)

الإيميل : darmeskelianeditions@gmail.com

إلى «كرمة» كرمها ظللني وأكرمني، وخير ماء اصطفاني
فغواني، وأسس المدينة عين فياضة ألهمتني، وصحبة جياشة
أوقدتني، فؤادي بها نصر، وضميري منها عنت، حكمت لأمرهما
أنيسا، وهل المُنَى غير الفتن. سيبقى خلود «راس العين» ذاكرة
الولاية، ومذكّرات الرواية، ونبض الكتابة، ونصا يخطّ تاريخ
الحكاية.

تقديم

كذبة الحياة أو صورتنا البشعة في المرأة
هذه رواية لا تقرأ دفعة واحدة... لا تقرأ مرة
واحدة...

هي رواية إشكالية من عدة زوايا، إشكالية من حيث الخيار الفني
لكتابتها، إشكالية من حيث مضمونها الرئيسي وجدول الحكايات
الفرعية، إشكالية من حيث اختيار شخصياتها أسمائهم ومواقعهم،
وإشكالية من حيث الوظائف الرمزية / الحضارية لأحداثها.
فعلى مستوى أسلوب الكتابة تفجؤك ” حمير المدن ”
باعتماد الأساليب الخبرية في السرد العربي القديم تصوير معها
مقاطع الحكاية بمثابة أخبار تحيلنا الى الأصمعي وحماد الراوية
والجاحظ، ولا يعوزنا خلالها سرعة ملاحظة تأثر الكاتب
بمحمود المسعدي (مذكور في عدة هوامش من الرواية) سواء
في طريقة نحت الجملة أو إسباغ نزعة فلسفية على مقاطع كثيرة
من الحكاية.

ولا يخفي المؤلف أوراقه بل يعتمد إلى كشفها في استشهادات ضمنها في هوامش كثيرة أسفل الصفحات (القران الكريم، أحاديث نبوية و قدسية، دواوين شعرية عربية قديمة، سنن الترمذي، كتابات التوحيدي، أمثال وحكم....)، خيار شاق وصعب حول الرواية في مقاطع كثيرة إلى نوع من المقال الأدبي أو الدراسة الحضارية، زادها اعتماد أسلوب السجع والخطابة إيغالا في هذا الخيار اللغوي المجازف.

خيار صعب ومجازف ذلك الذي أقدم عليه نعمان الحباسي في روايته هذه، صعب من حيث المقروئية وميل القارئ الحديث الى نوع من السرد عاكس لواقع الحياة اليومية، بسيط وسلس، ومجازف باعتبار مضمون الرواية والإطارين الزماني والمكاني لأحداثها.

فالرواية وإن لمحت للعصر الحديث فإنها لم تصرح بزمن معلوم، أما المكان وإن أشار إلى خصائص جغرافية (من حيث التضاريس والنبات والحيوانات...) تحيل إلى بيئة عربية / إسلامية فإنه غير محدد أيضا وحتى المدن المذكورة (الفيروز، ترازة، مدينة الشوك، صاهباء...) هي من نسج خيال المؤلف، زادت ضبابية الوصف غرابة وجعلتها أشبه بالفضاء العجائبي لا الواقعي: (رغم اصفرار المكان وحمرة تربته وجفاء زمانه وجفاف

مكانه، فيه اصطفاف وقرابين وأمة تحمل البيان والتبيان... مدينة ماذا؟ وقفار من؟) ص 3.

«في هذا الربع الخالي» ص 4، تدور أحداث حمير المدائن، رواية ثورة

”دائمة” لا بالمفهوم التروتسكي للكلمة ولكنها نوع من التأريخ لمؤامرات الوصول إلى الحكم في شرق تقوده الدكتاتورية ويهيمن فيه الجهل والأمراض، ناسه خاضعون خانعون يتقنون خيانة من يقوم باحثا عن صلاحهم ونجاتهم، قوم قبلوا بالذل حتى تماهوا مع ”الحمير”...

وفي هذا الفضاء الكابوسي يخرج بطل ”نضال” (والاسم رمزي ومفارق!!!) معبرا عن رفضه للسائد (أول كلمة ينطقها هي لا) راغبا في خلاص قومه من الظلم والخرافة، لكنه ليس بطلا إيجابيا يسعى إلى قيم أصيلة في مجتمع متدهور، فسرعان ما يسقط في إغواء الأنثى والسلطة، الأنثى صاهباء (الجنس) والأنثى جلييلة (الحية / سياسيا)، ويساهم في مؤامرات تجعله ينتهي منبوذا ومهزوما.

الحكم واللهث وراء عرش (من شوك) هو الغاية الرئيسية لأغلب شخصيات الرواية سواء كانت دينية (الكاهن ترهمان، الناسك، الشيخ) أو سياسية (منذر ونذير، جلييلة، طوطمان...)، ولكأن الرواية تشريح لقرون من الاقتتال الشرقي حول الحكم،

اقتتال تستعمل فيه كل الأسلحة وخاصة تلك الأسلحة غير الشريفة القائمة على الدسائس والتي تدبر في مخادع النساء وكهوف الظلام بعيدا عن إرادة الناس ورغبتهم.

ثورات وانتفاضات لا طائل من ورائها، تؤبد سلطة طاغية أو تجلب طاغية جديدا، انتفاضات لا شرف ولا نبل فيها، ولكأن الرواية مرآة تعكس بشاعتنا كحضارة شرقية قامت على المؤامرات والدسائس يتوهم الناس فيها أنهم أحياء لكنهم في واقع الأمر موتى شبعوا موتا: ”اتركوا الأموات تتذوق كذبة الحياة قبل أن يقتات الموت رفاتها” ص 8.

وتمتد الرواية على سبعة فصول تنجلي خلالها بشاعة الأحداث شيئا فشيئا لتخلف مرارة، مرارة كشف سوءتنا الحضارية من عورة عمرو بن العاص إلى اليوم، مرارة أحسن التعبير عنها شاعر عربي معاصر وقح

(يستشهد المؤلف ببعض أبياته في الرواية ويدرجها داخل السرد) هو مظفر النواب، ولكأننا أمام وتريات ليلية سردية لا شعرية.

وموجز القول في هذه الرواية أنها تنتمي إلى التيار القدر في الكتابة ليس كما كتبها رموز الرواية القذرة الأمريكية لكنها تستمد ”بشاعتها” هذه من مدونة تخيلية عربية قديمة تسعى إلى تعريتنا وتدعونا للخروج من قطيع الحمير الذي طالما انتمينا إليه.

والرواية ولئن بدت مستعصية أو ملغزة في بنية سطحها، فإنها على مستوى بنية العمق تخفي نصا رمزيا شاعريا، يشد القارئ الصبور ويأخذه إلى مناخات محببة من جلد ذاتنا الحضارية.

لسعد بن حسين _ كاتب وروائي
فيفري 2022

قال تعالى

”وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ
مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ“

(19 - سورة لقمان)

جرداء جوفاء هذه الأوطان، عليّة مريضة هذه المدائن، سليل
الوجع تأوها، غريمها مُخاوِزٌ مخبول يرعى شراً أجذب بليد
ويعتمر ظلّ ضلالٍ مقيت، يخبو صلح الأوس وعقد الخزرج
ومبايعة النصارى وبيعة يهود السفارة، لكنّ الأشاوس حلّت
ومضت قدما وغرغرت يقين الحقّ إكسيرا انتعشت له الأغصان
سخاء رطبا، مخصبا مدرّا، وانحلّت أسياخ الأطياف وهلك
في جذام أفعالها ودنف أعمالها، وانهالت على السندان مطارق
القسط واليقين، فاستوى الإعوجاج وحلّ القوام وانقشع الرهاب،
وسوّيت معادلات الضيّزى واعتدلت، من الإسراف إلى الإستواء
ومن السّرف إلى الإِسْواء.

الفصل الأول

الموت ليس إلّا عتبة حياة جديدة: نعيش اليوم، وسنعيش
مجدّداً وسنعود بأشكال عدّة.

صلاة مصرية للقيامة

امتعاظ وامتهان، امتنان وقربان، نفوس صامته ووجوه واجمة
متلبدة تحكي قيام الوعد، أجساد مترهلة، منفوثة مبثوثة، تتأمل في
أذكار خاشعة تنظر وتقع صوت ركز ملك، تتطفل فوقها ديدان
متكبرة لونها يحمل دكانة المكان وفظاعته.

ضمن رذة المكان أسيجة مزدانة تعلو قماء الأتربة، تحاول نشر
بهجة مظلمة تحدوها حلل الورد وسلاسل منمقة وصفائح مرقمة
ونفس يطفو عليه أخضر اللون رغم اصفرار المكان وحمرة تربته،
وجفاء زمانه وجفاف مكانه. فيه اصطفاف وقرايين، وأمة تحمل
البيان والتبيان، جموع مصطفة بنسق مترابط غير متزامن، أفئدة هذه
البشر واجمة، قابعة. مدينة ماذا؟ وقفار من؟ وأي تنظيم سبيراني¹
بهذه الجموع؟ الكل واجم قابع، مسكنات أعطيت لهذا البشر أم
أنه تحنيط قديم، ووأد جماعي. لا ألسنة تنطق ولا أطراف تتحرك،

1 الكائن السبيراني هو إنسان أو في أحسن الأحوال كائن حي، في الخيال العلمي تلقى ترقيع
الأجزاء الميكانيكية أو الإلكترونية

حالات السكون باهتة، لا رعدة، لا طرفة أعين ولا جفون تغمض، نائمون هم حتى يوقظون. زاد في غموض هذا المكان ودكانته استبصار مدائنه وأروقته المحففة بأشواك مدببة وأنساق متناثرة مكدسة كالأكوام تحمل فوهات البراكين، لكنها تنثر روائح تنقياً لها الأرواح.

في هذا الربع الخالي من الزمان روائح غريبة، مفزعة تقود صورة هلاك الفضاء، لكن الناس تصطف وتتراوح نازلة المكان، أناس تنضح وجوهها بمناسك الخشوع، يبدو في ظاهره مزارا للثقوى والورع يحمل كل الأجناس، ينبض نهارة رغم قبح أسواره نضارة الزوار وخشوعهم. ترى فيه دعاوى وقراءات منزلة، شفاه تردد ذكرى الإله بكل اللغات، تنعم بالوجود وبزوال الروح، النساء ملتحفات دافنات كل مظاهر الفتنة، بكاء وعويل، وورود تتناثر بين أيادي الزوار في كل ركن وكل زاوية، دعاوى وصرع يوقظ القلوب ويسكن العقول ويصطفي المكان خارج الزمان.

عندما يسدل الليل ستاره وينقضي أجل النهار فيه، سويغات هي ترعى تقلب كل الصور، اغترار الصباح بماوى التزلّف وصور البشر المنمّقة بأركان الديانات، وقباب المذاهب، وتلاوات الأضاحي، وقرابين الألواح القدسية تختفي وتضمحل ليصبح ليله أهازيج غنيمة مرتقبة للذئاب والخنازير والكلاب وما جاورها من بني بشر لا معالم لهم، عواء حادّ منظم، تراب يئنّ. أنين موجه

تكاد لا تدرك أنغامه من زخم آلامه، صورة الظلمة ألّبت المكان رداء موحشا. تعتبر الضباع فيه زينة لا أكثر، فصورة الضياع التهمت كل الوجوه، التهمت كل الموجود وأغرقت سفن الزمان في واقع تحدوه كل صفات الواقعة والزمن في اكتمال قمر كل ليلة وولوج ضوئه قعر السماء، سينير عتمة مريبة، مرتابة، من وقع جموع طرف البشر الآخر. عفة المكان تقفر وتستमित تحت التراب حتى يسطع نور الشمس وينقضي ليل زان، صاخب، بكاراته مفتضة ومواليدها ستحمل عفن الزمان وترهل المدائن، صورة التقوى فيه تحلّت ككل ليلة، تتعاقب على المكان كالليل والنهار، ليل يحمل سداثل الفجر، وفجر يناجي آيات الآلهة.

ثنايا الأمر موضع البلاء فيه رمم الصناديق لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة، منسقة، غدا ترابها مستباحا رغم بعض من تجصصيتها، وبعض من سقائفها، وقبابها. شقها كقعر النهر قوامه قدر البشر » احفروا وأوسعوا وأحسنوا²

في هذا المكان صمت الكلام وسكون الحركة ظاهره الحياة، باطنه برزخ، بوابة مفتوحة لا تخلو من الزوار، منتفخة لا تخلو من السكان، لا خلّق في أنسهم، ولا أنين لهم في مآلهم غير فعل سابق. قد ينذر بحياة الألفة والمرور المشعّ إلى نور ساطع، وقد

2 سنن الترمذي: كتاب الجهاد عن رسول الله، ما جاء في باب دفن الشهداء

يكون لحظة ظلمة دائمة لا ينيها إلا سعي نارٍ هو موقدها وحطب اشتعالها.

تراه بوابة العظة ومنفذ العبرة ومنفى الصدع، تنتظر في سكون النهايات، بداية أعتى الملاحم، تقوم وتتفرض جفون الليل وإطلالة النهار، تستقوي ببعضها حيناً وتستقوي على بعضها أعرافاً وأعقاداً.

سكّانه المحلّيون غير بني بشر أو بشر مصطافون مختارون، غير زوّار نهاره ومرتابي ليله، فهم نفوس واجمة يحملها نقص الحيلة وسواد الأفكار، يحملون في وجنتهم تقاسيم الهلع، ونظم الطمع، ورؤى العدم، لا نصرة في قوم لم يوقنوا فعل الارتداد، ولم يعلموا معنى الحرية حتّى في أعماق يؤمّها التراب، مازالوا على فعلهم يستبصرون، وينظرون، يتأملون، ويتألّمون، حتّى قدم من بينهم وهام بهم.

في خلوة الزمن في ذاك المكان، وعلى امتداد صقيع أثر في الجموع، امتدّ كيان ليس بالإنس ولا نطفة من الجان، هالة مشعة يبعث وميضها شقّ الجمدان، تراه كإله البرد نزل بزقاق الديار، فنخر صقيعا حول أطراف الواجمين، تخاله سيّداً أو حاكماً، المهم أنّه ماسك ناصية المكان. تفرّقت الجموع وأخلت

طرف المكان لمرور القسم من بينهم، أعتقوا أيديهم للسما كتحية للراهب المهاب. هام سيد الأسياد بجمع الناس، نادى بينهم ريح الأهواء وصوت الأصدقاء، اجتمع على قمتهم وقبع فوق ذواتهم، تفوح من رثانة عباءته رائحة بخور العفّة، وسناجق التقوى، وعود الذّمة، أطلّ عليهم صاحب الجناحين وحامل العقدين، صورة مبهمة من دماثة الأخلاق وبوق دعاوٍ يمجد الخلق.

انتفض هلام القاضي من بينهم ونفخ بوجنتيه المقرّبتين دوداً غليظاً، عفره المكان والزمان، والتفت حول راحة يده الخشنة، فأتّمرت لأمره، وانتفخت بعظمته، ونسجت حبّالاً خشنة فكانت سياط الجحيم لعقاق القوم ممّن تُسّول لهم أنفسهم نكث العهد ونقده، كان كمن حفر على جبينه ناصية الكون، تخانله في قوامه أجناس من ملائكة وجان، زبانية ورهبان، أقبل بينهم كمن هو عليم الأمرين، وصاحب الوجهين، كنصير أمة الغفلة، وسليل مجد الأزمنة ممّن توارثوا حبك ستارات الدجل وخبر نطفة قوم لا نور في ظلمتهم ولا انتصار لتظلمهم، كان عارفاً، متقناً، مدركاً لانضباطهم، مستبصراً لخنوعهم، حاملاً لخوفهم عزف أراجيف خرافات، وسرديات كان يسقطها من ربوة علّوه وتربعه على أعناقهم، يهوي بها على قلوب ضامرة وعقول لم يكتمل نموّها، ولن تكون لهم سيرورة الأفكار مادام الوهن متمكّناً والخوف متأصّلاً.

كان الشيخ عتياً، منتفخاً، يحمل في يديه عكاز الترهات، يَسْنِدُ به لحية الدهر التي تحمل سواد زرعه في قلوب جمع لن يوقظهم إلى عريضة متشابكة وقوة متآكلة.

حمل كتاب «العقد»³ بيد ضاربة واسترسل تباعاً كلمات سرمدية، يركز بعكازه في كل موعظة، ويرفع رأسه عاضاً بأسنانه في كل تلقين، كان بمنزلة الرب لهم، يأتي بما لم يأت به الأولون، كانت نتانة عباؤه لا توحى بتوهج سره وإنما بغلظة نبراته، لحافه امتد تحت التراب، مرتع مبین لقوم نافث يحدوه السكون، وحجرة داهمة دامسة لمرقد الديدان. صاح في الجمع مندداً:

- انعطوا فإن في خوفكم قرين عيشكم، وصورة رضاكم، وصوتا من الآلهة يحملكم لجنان الخلد.

رمى بجملته المعتادة رصاص رحمة لقوم الدهول، فلا «تسمع لهم ركزا»⁴ إلا طأطأة وسكوناً، وأضلاعاً مستوية، مستندة لبعضها، مرتعشة، تتلع مرارة الكلام زقوما حلوا ينعش ديدان التراب.

انتفى المكان بالجمع، صدح صوت الشيخ ارتداداً كمن رمی حجر الدهر في قاع بئر عميق، ديدان المكان ترقص في زهو وطرب، أطرب غنائها وضاعة الجمع ونفوق ذواتهم، زادت دكانة التراب وعلا أدراجا كالجبال الشوامخ، وسط أضلاع ارتجفت وانسحبت

3 ليس المقصود بـ«العقد الفريد» لابن عبد ربّه إنّما عقْد معقود بالخرافة مشدود إلى ناصية الزيف.

4 سورة مريم: الآية 98

وغطت نفسها من صقيع الكلام، فالتفوا خانعين، خاط الدود أفواههم وارتكزت فوق رؤوسهم لتوحد أرجلهم طين المكان الذي زادت برودته بعد وقع قطرات الندى. حثيث الأمطار ليس غيثاً في هذا الدجى، القطرات تنتظم وتزيد وتر الوقع فتغرق أمر الجموع في سراديب مختنقة أكثر ظلمة وأكثر ظمأً.

وسط هذا الانتفاء وفي غمرة أهوال المكان، وسط غشاء الديدان واعتلاء الأتربة السوداء مقام طين الخلاء في خلو الوجوه من كل انتماء، واقتياد الشيخ لهذا الجمع من البلهاء.

اعتلى المكان صوت «لا». زعزع الأمر مسامع النزلاء وعلا الشيخ الغضب من الدخلاء، فبين جمع الخانتين كان يرقد مولود العبث، جينة خبيثة لم يرّض أو يرّض الدارين، فكيف له أن يحيي أنساق الجموع الراكدة، ويستوهم صدق الشيخ وينال رضاه واستعطافه وهو سليل الهجناء وضارب الأهواء وعاشق الثورات وهو.. هو نضال،

حمله السكون وظلمة المكان أياماً وشهوراً ولكن ما تلك النفس التي ترضى القبوع والجثوم، كان راجح العقل في الزمن الغابر، سليل اللسان، قوامه حجج الدنيا والدين، وملبسه علم الغافلين، وفرشه أغطية غضة لأراجيف المتحكمين. انتفض من الجمع المهين، والتقف الدود بكلتا يديه الخشتين وساقها في أفواه من حوله، ونادى في الجمع خطاب الأولين:

- يبدو أن كل أمر يحدوه الأمل ككل أصلع يستشعر عرق الشعر، يبدو أن الوهم متمكن والوهن ساكن مترهل، يبدو أننا نتحسس بدايات النهاية، يبدو أننا لازلنا نعيش أحلام البداية، يبدو أننا لم نبدأ أصلاً حتى ننتهي إلى طريق دائري يحمل سواكن الزمن ودوامة المكان، يبدو أننا هنا في حالة مغص دائم نتقيأ قيح رفات قادة تقود غيوم غمة ما أنزلت بأمة وتمطر غيثاً من غيثان السقم، ألا من ذكر لهؤلاء حتى في توراة الإنجيل أو زابور داوود أو حتى صحف إبراهيم، ألا من نقيض لهم أو تماء معهم في ختام المعجزات، ألا ختان لعقول تستحق البتر حرقاً والكي شنقا والمعس كالفتق المرقط بألوان أفكارهم ونباهة أذكارهم ومنتف عروق أشجارهم ونبات أوراقهم، وكل تراب أطلق العنان من بزاق قرارهم، إننا اليوم نرى بأذن أفواههم ونسمع بأعين مولاهم ونتكلم بأطراف سقياهم، فبئس لأمة سارت جند أسرابهم ومعنى أغراضهم، فبور الأرض إنما عطش القلوب وملح العقول التي اكتسبنا.

وأنهى حديثه قافلاً غير عابئ:

- اتركوا الأموات تندوق كذبة الحياة قبل أن يقتات الموت رفاتها.

هذا الصوت الصادح من بين حشد الأفاقين اعترض رجّة حكمة الشيخ، فتصدّع المكان حصاة متفتّنة، وانثقت في الجوّ

سحابة دخان أنارت بقعة ضوء قصيّة، أزاحت التراب وقفلت عنه ديدان الموت، فُتحت عنوة أعين الجمع وسرعان ما اعتلت جفونهم حدة جبينهم، وماد بياض البؤبؤ بشبكة أغشت النظر فيهم إلى حمرة متّقدة، والتفوا من حولهم برؤوسهم دون أجسادهم الغارقة في وحل عجنوا طينه بقصر هاماتهم رغم طول قاماتهم. في هذا المستنقع العطن قام شيخ العفن مثقلاً مبهظاً، التحف وشاح الاشمتزاز، أوماً بعكازه لرأب الصدع ونادى في الجمع:

- قد أسمع هزال القوم يتججج، ألا من ناصر له وفاجر مثله يحمله بين الأعناق، فرؤية المنام هذه لا تنذر إلاّ بقطع ورتق، لا تحسبوا الانفلات مشعلاً سهل الإيقاد، فإن ساعة الحساب تقترن بصنّاع الذوات المنفلتة عن ركب «الرب» ثم حمل عكازه إلى أعلى السماء المشققة بخيوط بيضاء كمن يوقظ أجنحة البراق لتقصف المكان، وزاد فقال والحقد يطحنه:

- احذروا الزيف والشرك، فإني له لقاصف، واحتموا في حرير كفنكم وكلوا من دود أجسادكم واثمروا لعلمكم تنجون.

خيّم الصمت على جموع الواجمين عرقاً، اغترب في المكان حيث الأقدام، وصار في الجموع تململ ونكران، الأجساد واقفة خانعة، والرؤوس تلتف في دوامة العصيان، ألسنتهم لاهثة إلى ما حول، المشي معكوس والعقد منكوس وحياة هؤلاء ممات وانتفاء.

تقدم «نضال» بوقع القارعة عليه والحذر يملؤه من هوام المفازات، جاب الجموع، فراد السهاد ودقت ساعة الاحتدام. صرخ الفاجر الشقي:

- لقد أولفتم أنفسكم قنوتا ما بعده خنوع، أنّ المصاب يحمل ضغينة التدارك، فاصطفوا من حولي وانتفضوا لأحوالكم فإنني بكم لعازم غير هازم، تداركوا أمركم، فما أمري إلا نصرتكم، وما أمركم مني إلا كسر للقيود، ودحض للهذر، وشدّ يسندكم و يسندني.

ارتقب صاحبنا الانقسامات و التشققات لبيني التحالفات، علّه يظفر بنصرة قوم مكسورين.

هام في الحشد يمينا ويسارا، يقفز من كومة إلى أخرى، يدوس ديدان الوهن ويركز بخفيه لفتح أعتاهم حتى يزرع الأمل في قلب المكان، أخذ يمسك أطراف الجموع الباردة محاولا تسريب دفء النبض في قلوب أخذ منها الورم سيلا فسيحا، أعاد الأمر مرّات ومرّات ونطق في كلّ زاوية وكلّ آونة غير عابث بسكونهم:

- إنّنا نكابر أنفسنا على حمل ثقل ليس لنا بمبين، خفّفوا عنكم، وانتبهوا الكربة ظهوركم فهي تغذّي منكم كما تقتات ديدان سيدكم من ثخانة جراحكم الفاغرة.

زاد نضال في طوافه بالجموع في لجاجة مفرطة والراهب يتقصّى حركة الأتباع بكل انتباه ملما بالأحداث، لا تفرعه قدم غير مختالة أو مناصرة لشقي العباد، وزاد نضال فقال:

- أراكم ولا أسمع منكم، كفّوا عن نكران ذواتكم وإلجام أفواهكم وتسيّدوا ألسنتكم وافتكّوا علوكم من تحت التراب الكاتم على أنفساكم، أتركوا أمر الشقاء ولو لحديث الذات، فإنّ ملاطفة أجزاءكم بأمر لا تثير حتى قطع الخرفان، فشهوة الغربان المحلقة تقتادكم لتقتات لذتكم، وتقصف عزّتكم وتنهي ما في غريزتكم.

وسط هذا الارتداد الذي قذف بهدوء المكان، تعاظم برق وامض عليه المكان فيه نصرة ملك عضوض، ارتمت الظلمة في أحضان الوميض فباتت الفوهات منارات الهلاك، غاب الرأي عن حشد الأجساد وقفلت الوجوه، واتخذت الجموع مكانا سفليا تحت أبدية ركز التسبيح، فتمسحوا بعباءته، وتلحفوا قرف نتائجها نياشين الرعب والهدى دون كبير فزع أو ارتباك خاطب عليه القوم درك الأسفلين:

- إنّما هو صورة الضياع وما أقدم عليه نفخ في مزمار السلطان، وما تعجل به غرّ دنيء قوّد، يتلکأ فيه على ضعاف الحال، ما كنت حارسا على هذا المكان، وعزّة ما أتيت به من سلطان، لأقضي أمره دون هوان.

ثم أطلق لعصاه العنان وأمر الحشد لاقتياده زحفا تحت الديدان وأوجز فقال:

- إنني رحمة لكم وبيان، قد أتيت بعثا لكفر الأنجاس منكم، وإن هذا الشقي عفن اللسان قد عفر بهيئة المكان، يخال أن الأمر سراب وقد قفل عنه كل من تحت التراب، لو كان فيه خير لما ألجم المكان، ولما نطق سفاهة البرهان، إني به عاصف وإني لروحه لقاطف وإنما ذلك ليس فيه عبرة للإنسان.

هَبَّ صاحبنا يهرول كالمجذوب بين جموع أجمعت على نظم الطغيان، ارتدّ عنهم وقفز من صهوة صمتهم واتخذ ناصية الحديث وردّ على شيخهم قائلا:

- ما بالي بك تستقوي على ضعف الحال والحال أنك مهاب وصاحب سلطان.

ردّ الشيخ في وكز من قلة الاحترام.

- أتخال نفسك بعيدا عن سياط الإذعان؟ إنما فقط سكت عنك ولم أسه، لأعلم إن كان في الأمر أشقياء يخطون حذوك.

اغتاظ نضال وأدرك أن لا قاسم يلم الشعث وأن نهاية الأجل وشيكة أمام أعين شاردة، وأفواه هامة تملأ المكان وتحاصر صاحبنا دون رضى، حاول التملّص من أيادي الأجساد المرتعشة لكنّ المزلق كثرت، فعسر الهروب وانتهى به الأمر معلّقا

وسط الجموع فأدرك حجم النفوس المذعنة، وأوعز لنفسه بارقة الأمل فتكلّم وحدث النفس:

- ما كنت أحسبني إلا منكم، فبيان الأمر خبره نصرة توّاري عنكم باب الجحيم الموارب، تيقنوا أن جمعكم في الظفر بي لراهبكم قد يكون آخر شعاع نور قد يكسو بأسكم. زاد نضال في خفقان قلبه وأطرق:

- اتحدوا الآن من حولي، فنحن جمع نستقوي ببعضنا لا على بعضنا، وانظروا البعض الحق بوجه سلطان الربوة، فسترونه يتماهى معها ويتفتت حصاة متكلسة.

واسمعوا مني فما عاد في الأفق رهان غير لحظة يقظة قد تزف للقلوب عزفا يوقظ ذلك الخفوت، فحملكم سيزدان لو رفعتموني قدوة أهزّ بها عرش التوهان.

ما انفكّ صاحبنا يحدث الناس حتّى تكابرت الديدان، ساققتها يد خفية انفصلت عن ذلك الرهبان، وامتدت هالة السلطان لتنفخ في الديدان التي غمرت فوهة شفاه نضال التي يبست وتقرشت من كثرة الكلام.

عمّ الصمت وتنامت أيادي الجموع متشبّثة بنضال متوهمة نصرة السلطان، خلص الأمر ووضح البيان وانتهت قصّة الإنسان وبدأ سيف الإذعان.

ترقب الجمع مخاوف الدهر وانكب الكَل يسوق حالة التوهان
ويرهب راهب الزمان ويمجد في صمت قوّة السلطان وغباء
الشقي المهان، اتكأ الكَل على الكَل والتحمت الجموع في جسد
الطغيان وباعدوا أنفسهم عن نصرة «نضال» معلنين حالة الفرع
من رهبة «القوادر» المتربّع على أعناق أرواحهم، تلبّدت الوجوه
وأغمضت الأعين، تراءى للجمع انتظار حكم الطغيان، تكدّس
الكَل فوق الكَل بغية طمس النضال، وهاهو بحر السكون الجاثم
على أنفاسهم يطفو وراء السلطان.

علم الملك توقّف حالة الهيجان فأسرّ للبرق أن يغادر أرض
الفناء، لتعمّ سحابة سوداء قاتمة تغطي المكان وتدفع ولع الديدان
لرحلة جديدة.

أمعن الشيخ النظر في نضال بعد إلجام فمه بإحكام بفعل الديدان،
وصاح في البرّ فزعزع المكان وقام وانتفض آخر الأوصال فكان
قمئاً من جحيم سهران. تكلم فحكم وتلكأ فلکاً صفّ الارتداد:

- احملموه غياً واقلبوه عقبا، واثنوني به غرسا فوق فوهة تلك
الأكوام، واحفروا له أعماق ليرى في البيان صورة الولع بدحض
الأحكام.

ما إن نطق صوت الحق لهم أو حقّ الباطل لديهم، حتّى وزّعوا
أنفسهم وانقسموا كلّ شقّ يتشقى ويتولّى مهمة تنفيذ الأحكام.
ما عاد للصراع مكان. همّت مجموعة تنبش كومة التراب غوصاً

وتعميقاً بمعاول أصابع لم تدم حتّى بكيان، ففتحوا حفرة الدهر
ودهلّيز البيان وصار القبر كهفا يلامس صخور قلب الحياة،
وانكب الفريق الثاني معلّقاً نضال من قدميه الدّاميتين بفعل دهس
الديدان والهرولة في المكان، فتدلّت نحافة جسده من صورة
الإنسان، وقفر وجهه لعنة الزمان، وتمّ أمره، فركزه السلطان بعصا
أشبه بعصا سليمان، ركزة انتفى فيها الزمان، واطمأن فيها الرهبان،
وعاد فيها الحشد إلى حنين الطغيان ونمق الإذعان، ولم يعد للأمر
سوى قراءة البيان والبحث في أقدار شقيّ دُفن في أروقة اللامكان
وانتهى حديث الشقيّ وبدأت رحلة الشقاء.

الفصل الثاني

جوقتا الظلام